6

هتلر والاستخبارات السرية

هتلر والجاسوسية
عملية شريط الفضة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

هتلر والجاسوسية

امتلك هتلر حاسة خاصة تجاه الاستخبارات، ولكن في صورتها كجاسوسية. إن ما أثار خياله دوما، لم يكن المعرفة الموضوعية حول العدو، بل مغامرة الحصول على المعلومات السرية. هذا العامل هو الذي حدد علاقته بكاناريس: الشخصية الكتومة، التي عرفت كيف تربط خيوطا سرية في كل مكان، وتركت انطباعا إيجابيا واضحا عليه، في سنوات السلام الأخيرة وسنوات الحرب الأولى. لقد كان الأميرال يتنقل بصورة دائمة، ملاحقا المهام الاستخبارية، وهاربا من ذاته، كما تؤكد مرغريت بوفيري[1]. في الأصل، اعتقد هتلر أن رئيس مكافحته قادر على فعل أشياء كثيرة، كأن ينظم في العالم بأسره انتفاضات لمصلحة الألمان. وحين لم يحدث شيء من ذلك، تكدرت علاقاتهما أكثر فأكثر.

وكان واضحا مع بداية حملة روسيا أن كاناريس فقد ثقة هتلر، الذي لم يستقبله إلا في حالات استثنائية قليلة. لكنه دأب على القيام بزيارات روتينية إلى الفيلد مارشال كايتل، رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة، كي يتلو تقريره الرسمي على مسامعه. يقول فالتر فارليمونت[2]: «كانت زيارات

---

(1) أنظر مقطع كاناريس في كتاب مارغريت بوفيري: الخيانة في القرن العشرين. الجزء الثاني، ص43 وما يليها حول كاناريس.

(2) في مذكراته / في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية، الملاحظة في الصفحة 191.

رئيس الشعبة في وكر الذئب» تقتصر على رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة، الذي كان يحافظ بدوره على الصلة مع الدوائر التابعة له، ويسافر أيضاً إلى برلين. كان كاناريس يأتي بصورة دورية تقريبا بصحبة رؤساء شعبه الثلاث، «كي يفرغ ما في قلبه» كما كان يقول غالباً، دون أن يصل الأمر مع ذلك إلى ما هو أكثر من محادثة تدار بالتلميحات حول هموم الجانبين». بالمناسبة، يقول هيلجروبر عن كاناريس في كتابه «استراتيجية هتلر، سياسته وقيادته للحرب 1940/ 1941: [1] «بعكس التقويم المتفائل لقيادة القوات المسلحة العليا حول إمكانية إنهاء حملة الشرق بسرعة، كان الأميرال كاناريس يتبنى رؤية متشائمة حيالها. هذا ما تتفق عليه جميع المذكرات، لكنه لا توجد، بالمقابل، مصادر تثبت أن تقويمه كان يصل إلى هتلر».

نشأت التناقضات بين هتلر وكاناريس منذ بداية الحرب سنة 1939، ونجمت عن تصورات مختلفة لمفاهيم أخلاقية رئيسة، ولأنماط السلوك في الميدان. إذا كان المؤلف قد عرف الحقيقة من محادثاته خلال الأسر[2] مع الجنرال فون لاوسن، فهو يستطيع أن يؤكد أن الخلافات برزت لأول مرة عندما طرحت فكرة استخدام بذات عسكرية معادية في هجمات الألمان، وكان هتلر مهووسا بها، في حين اعترض كاناريس عليها بأكثر التحفظات جدية، ولم يقبلها في النهاية إلا نزولا عند أمر عسكري، طلب إلى الشعبة الثانية من المكافحة تأمين البذات الضرورية[75]. ثم افتتحت الحرب العالمية الثانية بمسرحية شبه قاتلة، فكانت علامة سوء ميزت انطلاقها.

لا زال ما حدث في ذاكرة الناس: فقد ارتدى رجال مشبوهون يتحدثون اللغة البولونية ثياب الجيش البولوني، التي تم الحصول عليها

(1) مرجع سابق، ملاحظة على الصفحة 511.

(2) تم استجواب لاوسن كشاهد في محاكمة نورنبرج، وزج به بعد ذلك لبعض الوقت في معسكر التوقيف المسمى «بيت ألاسكا».

بطريقة غير شرعية، وقاموا باعتداء كاذب على إذاعة جلايفتز، اعتبره هتلر ذريعة برر بها أمره بـ«الرد على إطلاق النار» في الأول من أيلول/ سبتمبر سنة 1939. وكان قد حدث في السادس والعشرين من شهر آب هجوم مشابه تم في ظروف تضليل اتسمت بأحط أنواع الخداع، لكنه فشل فبقي الناس أقل معرفة به من حدث أيلول/ سبتمبر اللاحق. ذلك كان التدبير الهجومي الأول من الجانب الألماني، الذي لم ينجم عن استفزاز، لكن البولونيين نسبوه فيما بعد إلى «ألمان بولونيا المناصرين لهتلر»، الذين تجرع كثيرون منهم كأس الندم المر، حين انصب الغضب الشعبي البولوني عليهم بعد الواقعة، وبدأ التصعيد العنيف.

ما الذي حدث[1]؟. من المعروف أن هتلر كان قد أصدر أمرا بالهجوم على بولونيا يوم 26 آب/ أغسطس سنة 1939، فكان على الجيوش الالمانية، المنضوية في مجموعتي جيش، أن تعبر فجر صبيحة هذا اليوم الحدود بين بحر الشرق وبيسكيدن. لكن السفير البريطاني هندرسون تدخل قبل ظهر يوم 25، فأمرت القوات بالتريث مرة أخرى لإعطاء السياسة فرصة أخيرة. كان هتلر مجبرا على قبول العرض البريطاني، لحفظ ماء وجهه أمام الرأي العام الدولي. لكنه نشأ، آنذاك، وضع خطير بالنسبة إلى سلاح الإشارة الالماني، خاصة واتصالات القوات لم تكن قد بلغت بعد الكمال الذي صارت عليه في الحقبة التالية، وألفت التعاون في ما بينها، نتيجة لافتقار وحدات الإشارة إلى تدريبات عامة. فهل كان ممكنا، في وضع كهذا، إيصال الأمر بالتريث إلى كل مكان؟.

في هذه اللحظة الحرجة، ظهرت جدارة الجنرال فيلجيبل، رئيس

(1) كان المؤلف آنذاك جزءا من أركان قيادة الاستخبارات في قيادة الجيش الرابع عشر (العماد ليست)، وعلم بالأحداث من مصادرها الأولى.

اتصالات قوات الرايش المسلحة وإشارة الجيش، الذي أمسك بزمام القيادة بهدوء الواثق من نفسه، وحقق بطريقته ما كان «خبراء» كثيرون يعتقدون أنه غير قابل للتحقيق: إيقاف القوات حيث كانت مرة أخرى. وقد وصل الأمر بذلك قبل منتصف الليل حتى إلى الشعب المتقدمة، فكان وصوله دليلا بيّن المستوى التدريبي الرفيع لوحدات سلاح الإشارة، الذي ما لبث أن ظهر في سائر المجالات الأخرى أيضاً. ثمة حالة واحدة فقط أخفق فيها هذا الجهد، وفشلت الإشارة في إيصال أمر التريث إلى مجموعة قتالية ذات مهام خاصة، فانتهكت السلام يوم 26 آب/ أغسطس سنة 1939. هذه المجموعة، التي بلغ كثيرها خمسين رجلا، وقادها ملازم ثان اسمه هيرتسنر، كانت مكلفة بشن هجوم لاحتلال نفق ممر يابولانكه واستخدامه في نقل القوات الألمانية. كانت المجموعة تتكون بصورة رئيسة من بولونيين أو ألمان ناطقين بالبولونية. وقد اجتازت في سرية تامة الحدود السلوفاكية / البولونية ليلة 26 آب/ أغسطس. وكان الملازم هيرتسنر يحمل جهازا لاسلكيا، يؤمن ارتباطه مع اللواء السابع (البافاري)، المستعد للهجوم انطلاقا من منطقة شمال سيليزيا. لكن الجهاز لم يعمل في المنطقة الكثيفة الغابات، ولم يمكن الوصول إلى مجموعة هيرتسنر أو إيقاف هجومها، فبدأت في عتمة الصباح حربها ضد بولونيا واحتلت ممر يابولانكا والنفق، كما احتلت بعد معركة نارية قصيرة، محطة قطار موستي الحدودية الواقعة إلى الشمال من الممر، وأسرت جنود قطار نقل كان موجودا فيها. أما العمال البولونيون، الذين أرادوا السفر إلى عملهم في منطقة اوسلا، فقد احتجزوا دون إبطاء في مستودع للتجهيزات.

ماذا حدث بعد هذا؟. لم يتحرك اللواء السابع، الذي كان يجب أن يقوم بالهجوم، فبدا هيرتسنر ورجاله الخمسون وكأنهم معلقون في الهواء، بينما تزايد اضطراب الأسرى. تذكر القوم، عندئذ، هاتف محطة القطار،

الذي كان يعمل لحسن الحظ، فتم بعد بعض الوقت الاتصال مع محطة قطارات كاديا السلوفاكية الحدودية، ومنها مع أول ضابط أركان من اللواء السابع، الرائد رايشلت، الذي أمر الملازم هيرتسنر ورجاله بانسحاب فوري وغير ملحوظ قدر المستطاع. فيما بعد، نسف البولونيون نفق يابولانكا، وإن اقتصر النسف على أحد مداخله[76]. ترتبت نتيجة مأسوية على هذه العملية، إذ توجه البولونيون بغضبهم إلى مواطنيهم من ذوي الاصل الألماني، بسبب انتهاك السلام، الذي اعتبروهم مسؤولين عنه.

اهتم هتلر باستخبارات المكافحة أكثر مما اهتم بعمليات الكوماندو والتخريب وما شابه من مغامرات، وأصغى باستمتاع إلى قصصها على هامش قيادة الحرب. وكان يغرق في الضحك، عندما كانت تروى له. لكنه كان سرعان ما يدعو إلى صرامة باترة، عندما يعلمونه بوقوع أعمال تجسس في ألمانيا، كما يستشف من أحاديث المائدة، حيث حكى يوم 17 أيار/ مايو 1942[1]، على عكس مألوفه، بإعجاب صريح عن الجاسوسية السوفياتية، التي اعتبرها «متفوقة تماما»، وساعدتها التنظيمات الشيوعية الأممية على إظهار نفسها ببراعة لا حد لها، بما هي موضوع من موضوعات النظرة الشيوعية إلى العالم. ماذا كان تقويم هتلر لد «مكافحة»؟. إنه لم يفصح عن آرائه حيالها، لكن نقده كان مبثوثا بين الأسطر، حين قال «إننا لم نكن جاهزين تماماً لسلاح المدرعات الروسي»، لأننا لم نعرف شيئاً عن دبابة ت34 الروسية الجديدة، التي كانت مفاجأة غير سارة على الإطلاق بالنسبة إلى المهاجمين الألمان، الذين لم تكن قوات بلادهم قد تزودت جميعها سنة 1941/ 1942 بالمدافع القادرة على مكافحة تصفيحها القوي، وافتقروا إلى سلاح بوسعه مقاتلتها غير مدفع ال 8،8 المضاد للطائرات.

(1) هنري بيكر: أحاديث هتلر على المائدة، ص 351.

قام هتلر يوم الثاني والعشرين من أيار/مايو بجولة في سوسيولوجيا الجاسوسية، وقال[1]: ثمة اليوم مجموعتان من البشر، يمكن أن تشاركا في الجاسوسية: ما يسمى «المجتمع المنعم» ومجتمع البروليتاريا. أما الطبقة الوسطى فلديها تصورات راسخة حول الجاسوسية. فإذا أراد المرء مكافحة الجاسوسية بفاعلية، كان عليه التصرف بكيفية تقنع من يمارس التجسس بأنه لن ينجو بجلده، إن إلقي القبض عليه. هذا ما فعلته جميع الدول الشمولية، بل ان سويسرا المحايدة نفذت خلال الحرب أحكام إعدام بتهمة الجاسوسية. عاد هتلر مرة أخرى يوم 7 حزيران/يونيو إلى هذا الموضوع، عند تناول طعام الغداء في «وكر الذئب». وقال إنه أوضح لجونتر[2]، وزير العدل في الرايش، مرة واحدة وألى الأبد أن قراره الذي لا تراجع عنه هو إرسال مجموعات من الـ إس إس لإحضار كل خائن لبلده، تصدر عليه المحاكم النظامية حكما مخففا، وإعدامه، لأن خيانة البلاد جريمة فكرية يجب معاقبة مرتكبها بالموت، بغض النظر عن الضرر الذي تسبب به. بهذه المرارة الوحشية، تصرف هتلر مدفوعا بعقدة «الخيانة العظمى» بعد العشرين من تموز/يوليو سنة 1944، وفي الحالات التي لم تقترف فيها خيانة عظمى، أو يتأكد اشتراك مباشر فيها، بل اقتصر الأمر على العلم بمحاولة اقترافها. وقد أصابت تدابيره وكالة أنباء العدو وسلاح الإشارة، أكثر مما نزلت بـ«المكافحة»، وسقط كثير من قادتهما بين يدي الجلاد، على رأسهم الجنرال فيلجيبل.

(1) المرجع ذاته، ص 371.
(2) المرجع ذاته، ص 392.

معرفة الجيش الأحمر كانت سنة 1941 هزيلة

لماذا انخرط هتلر في مغامرة هي الحملة على روسيا؟. لماذا اعتقد أن النظام البلشفي سينهار تحت الضربات الشديدة الأولى لقوات ألمانيا المسلحة؟. لعب نقص المعلومات حول القدرات السوفياتية دوره هنا، فقد كانت المعلومات السرية عن الجيش الأحمر، التي امتلكها الألمان عند بدء الحرب، هزيلة جدا، كما سبق لنا القول[1]. وباستثناء الصورة العامة حول النمو المتواصل للاتحاد السوفياتي، التي قدمها الملحق العسكري الجنرال كوسترينج، لم ينجح الألمان في الحصول على معلومات واضحة حول قدرة وتنظيم قوات السوفيات المسلحة وإمكاناتهم التسليحية[77]، في حين شابت التناقضات ما استطاعت المكافحة تدبيره من مستندات، ولم تحصل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» أول الأمر إلا على معلومات قليلة «موثوقة المصدر»، استقتها من الاستطلاع اللاسلكي. بدورها، نشرت الاستخبارات العسكرية السوفياتية قبل الهجوم الألماني أخبارا موجهة، تعمدت تقديم قوة الاتحاد السوفياتي الحربية في صورة جعلتها أكثر ضعفا وتأخرا مما كانت عليه في الواقع، بدا أن هزال نجاحات السوفيات في حرب الشتاء ضد فنلندا سنة 1939 / 1940 يؤكدها، قد تكون استهانة هتلر بالجيش الأحمر راجعة إليها[78]. صحيح أنه كان يمتلك انطباعا إيجابيا عن الجاسوسية السوفياتية وأساليبها، وتحدث معظم الأحيان بإيجابية عن ستالين، وبشيء من حب يخالطه الكره، لكنه اعتقد أن البلشفية سريعة العطب، وعرف كيف ينقل قناعته إلى المشاركين في مناقشات الوضع، وهذا يبين كم كان تأثيره كبيراً آنذاك، حتى إن القائد الأعلى للجيش، المارشال براشيتش،

(1) معلومة شخصية من العقيد السابق تيودور هاينريش، ضابط الأركان الثالث لدى قيادة الجيش العليا والمدير اللاحق لشعبة المكافحة الثالثة.

وصف يوم 1/ 5/ 1941 مجرى عملية «باربروسا» على النحو الآتي: «سيكون هناك على الأرجح معارك حدودية عنيفة، ستستمر حتى أربعة أسابيع، ثم ستشهد الفترة اللاحقة مقاومة ضعيفة وحسب». أما تقويمه الجندي السوفياتي، فكان على النحو الآتي: «سيقاتل الروسي حتى النفس الأخير، حيث يكون ظهره إلى الحائط». أكد هذا التعميم خطأ النبوءتين. كان الألمان يمتلكون آنذاك مستندات قليلة يستطيعون انطلاقا منها تأسيس حكم معلل، ويفتقرون إلى جهاز الاستخبارات القادر على جمعها. إلى هذا، ما كان لوفرة المعلومات أن تحدث التأثير المطلوب لدى هتلر، أو لتغير قراره. أما هو، فلم يتردد ربما إلا عند إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة الأميركية يوم 11 كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1941، عندما رفض الاستماع إلى ما كان ينتظره. يروي الجنرال كوسترينج القصة الآتية[1]: «كان ملحقو الأسلحة الألمان يستدعون مرة في العام إلى برلين لتلقي توجيهات ناظمة لعملهم اللاحق. وكانت ذروة هذا اللقاء دعوة إلى الغداء على مائدة هتلر في رئاسة وزارة الرايش، يقتصر حضورها على الملحقين العسكريين. هنا، كان هتلر ينفرد بالحديث ويقدم أفكاره السياسية... وكنت أجلس إلى جانبه، بصفتي أقدم ملحق عسكري، من دون أن يكترث بي على الإطلاق. لقد كان يوجه حديثه إلى الملحقين الآخرين، غير أنه وجه إلي سنة 1936 السؤال الآتي: أليست خدمتك في روسيا رهيبة، أيها السيد الجنرال؟. فأجبته بأنني أحظى بمعاملة لائقة وودية إلى أبعد حد من الروس. هذه الإجابة لم تمثل بالنسبة له حافزا يدفعه إلى تعميق السؤال، بل تخطاها وعاد إلى توجيه كلامه إلينا جميعا». يتفق الشهود جميعهم على أن هتلر كان قليل الاهتمام بجمع معلومات موضوعية من الآخرين، وأنه لا

(1) أندرياس هيلجروبر: استراتيجية هتلر: السياسة وقيادة الحرب 1939-1941، ص 509.

يقيم وزنا إلا لحكمه المبني على حدسه الخاص. هذه المبالغة في تقدير الذات، التي انتقلت إلى محيطه، تفسر مسودة التوجيه رقم 32 استعدادات لزمن ما بعد باربروسا[1]، التي بقيت دون توقيع، لكنها كتبت بطلب منه، وتبدأ بالجمل الآتية: «سوف تسيطر ألمانيا وإيطاليا سيطرة عسكرية تامة على البر الأوروبي - دون شبه الجزيرة الأيبيرية بصورة مؤقته، بعد تحطيم القوات المسلحة السوفياتية. عندئذ، لن يكون هناك أي تهديد أرضي من أي نوع كان للمجال الأوروبي، وستكفي لحمايته ولشن العمليات الهجومية، التي يجب أخذها بالاعتبار، قوة من الجيش أقل بصورة جوهرية من القوى التي حافظت عليه حتى الآن. لهذا السبب، ستنتقل نقطة ثقل التسليح إلى البحرية وسلاح الجو».

هتلر والحدس

كيف وصل الأمر إلى هذا التشخيص المغلوط المفعم بالغرور؟. كيف أمكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟. إن أحد أسبابه الرئيسة، التي لعبت دورا بالنسبة إلى أركان القوات المسلحة أيضاً، كانت نقص المعرفة بالعدو. فالاستخبارات السرية لم تكن تعرف إلا القليل عن الجيش الأحمر، وكان هذا القليل متناقضا، بينما كانت شعبة الجيوش الأجنبية شرق: تتخبط آنذاك في الظلام[79]، فلم يبق غير عامل واحد حسم الأمور هو: حدس الآمر الأعلى وسيد الحرب. وقد اقتنع الجنرالات والمارشالات، الذين كانوا ميالين في السابق إلى الشك في قدرات القائد الأعلى، بامتلاكه قدرات خارقة تجعله يرى الأمور بصورة صحيحة في نهاية الأمر، وأشير في محادثات لا عدد لها جرت قبل الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1941 في دوائر

(1) فالتر هوباتش: توجيهات هتلر حول قيادة الحرب 1939 -1945. فرانكفورت على الماين 1962، ص 129 وما يليها.

القيادة العليا، إلى ما حدث قبل حملة الغرب[1]، عندما كان القوم متشائمين سنة 1939 / 1940، وأبدى جميع من شاركوا في الحرب العالمية الأولى من دون أي استثناء تحفظات قوية ضد الهجوم، وحذروا من القدرة القتالية للجيش الفرنسي ومن شجاعة البوالو، حين يتعلق الأمر بمصير فرنسا، ومن وطنية الفرنسيين المتأججة. وقالوا إن الهجوم الألماني سيخمد بسرعة، والألمان سيهزمون بعد تكبدهم خسائر عبثية. لكن هتلر أصر على هجومه، الذي تم تأجيله المرة تلو الأخرى، حتى إن هالدر ومقربين منه فكروا في نهاية سنة 1939 بإزاحة هذا «المريض بالهذيان». ثم تبين بعد العاشر من أيار/مايو سنة 1940 أن هتلر انفرد وحده بتقويم صحيح للفرنسيين، وأنه كان وحده الأب الروحي للحرب الخاطفة في الغرب. فيما بعد، نشأت عن هذه الخبرة تلك الأسطورة، التي قيض لها أن تقود الألمان إلى الهلاك. منذ حملة الغرب، سمى «منافقو البلاط» والصحافة النازية العريف السابق «أعظم قائد حربي عرفته العصور».

كان هتلر مقتنعا بعبقريته الاستراتيجية، بعد الانتصارات الخاطفة الأخرى واحتلال كريت من الجو. لكنه سقط في الحقيقة ضحية للغرور، باعتقاده أنه لا يوجد ما لا يستطيع الجندي الألماني القيام به، تحت قيادته طبعا. بسبب هذا الغرور، قرر إخضاع الاتحاد السوفياتي أيضاً، وضرورة أن يعقب الانتصار في الغرب انتصار أكبر في الشرق، لتصبح أوروبا بأسرها رعية له. لكن أسابيع قليلة بعد بدء حملة الشرق كانت كافية لإثبات أن حدس القائد الأعلى لم يكن غير مغامرة خاطئة مثيرة للقلق. عندئذ بدأت الاستخبارات المتخصصة بالعدو عملها، بدءا من ضابط شعبة الأركان الثالثة

(1) كان المؤلف قد نقل منذ مطلع حزيران/مايو 1941 إلى أركان قيادة الاستخبارات لدى قيادة الجيش السابع عشر العليا في الشرق.

في الفرق صعودا إلى استخبارات الجيوش ومجموعات الجيوش، لتنتهي أخيراً بالتقويم التالي الذي قدمته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»: تكتسب نقاط قوة وضعف الجيش الأحمر معالم محددة. لقد عرف الألمان الآن العدو وقدراته الحربية على حقيقتها[80].

عرف الألمان أسرار العدو بمساعدة الجنود الذين أداروا ظهورهم لجيشه الأحمر - وهي ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ الحرب -. إن «الاحتكاك بالعدو» لم يمزق فقط الستار السميك المضروب حول الاتحاد السوفياتي، بل كشف كذلك هشاشة النظام السوفياتي، التي كانت موجودة حقا آنذاك. مع ذلك، فإن قوى وعوامل كثيرة مجهولة كانت تعمل لمصلحته، كان على الاستخبارات المتخصصة بالعدو أن تفسرها بصورة دائمة، وتفسر معها وضع العدو، الذي يقوم بمفاجآت متجددة على الدوام. هكذا كان على الاستخبارات الألمانية أن تنهمك في عمل دائب منذ بداية الحرب، لتقوّم اعترافات الأسرى والفارين الروس، وتغربل الوثائق المكتوبة التي غنمتها. أما الصورة الشاملة التي نجمت عن ذلك، فكانت مثيرة للقلق، فقد أكدت أن القيادة السوفياتية لن تركع في وقت قريب، رغم الهزائم الشديدة التي نزلت بها. هذا الجرد الأولي تم إيصاله إلى «فوق» طبعا، فبدا هتلر نفسه متأثرا به لبعض الوقت، خلال خريف سنة 1941، حتى إنه أخبر لوشيانو، وزير خارجية إيطاليا ما معناه: لو كنت أعرف الحقائق، لما بدأت الحرب ضد روسيا. مع ذلك، فإنه لم يستخلص أبدا النتائج التي كان يجب استخلاصها من ذلك. في تقرير لم ينشر بعد كتبه العقيد راندیفیج[1] حول إنجازات الاستطلاع اللاسلكي على الجبهة الشرقية، يقول الكاتب: «انفرد القائد الأعلى للقوات المسلحة وللجيش برفض هذا الاعتراف، رغم الهزائم

(1) مخطوط في حوزة المؤلف.

التي نزلت بنا أمام موسكو وفي ستالينجراد وأفريقيا، نتيجة تقويمه الخاطئ للعدو، وتشكيكه في صحة تقارير الاستطلاع الاستخباري، التي توصلت إلى استنتاجات متزايدة الوضوح، ارتكزت على مستندات موثوقة تتعلق بتفوق قوة العدو وأهدافه العملياتية، بعد الإنزال في فرنسا سنة 1944 في الغرب، وقبل فترة طويلة من هجوم بارانوف في كانون الثاني/يناير من سنة 1945 من الشرق. بل ان الأمر وصل سنة 1944/ 1945 إلى حد أنه كان يرفض ما يسميه نمط التقارير ذات اللون الواحد، في كل مرة كان رئيس الأركان العامة أو رئيس شعبة «الجيوش الاجنبية شرق» ينقلان إليه أنباء مزعجة كهذه».

فقد هتلر صوابه قبل الكارثة بوقت طويل، أي بعد الهزائم الأولى، كما يخبرنا تقرير راندیفیج. لقد جاءته من جديد مواد «من مصادر موثوقة» تبين قوة السوفيات المتنامية، وتتحدث عن عملياتهم المحتملة، وتحدد أرقام إنتاجهم المتزايد باضطراد من الدبابات والمدافع، لكن هذا لم يترك أي أثر لديه، بل دفعه إلى القول، كما كتب راندیفیج: «إنني أرفض أن تقوم الأركان العامة بعمل كهذا. إن معرفة نوايا العدو واستخلاص نتائجها بالنسبة إلى القيادة هما عملان يقدر عليهما العباقرة وحدهم. والعبقري لن يرضى أبدا بعمل يدوي صغير من هذا النوع». هذا الموقف يؤكده فالتر فارليمونت، نائب رئيس أركان قيادة القوات المسلحة الألمانية خلال الحرب، عندما يقول عن هتلر[1]: «كان يكتفي من الأفكار حول العدو بما كان يرضيه، وكان غالباً ما يرفض ـ أيضاً ـ حتى مجرد الاستماع إلى ما لا يعجبه. وكان المكان والزمان لا يعنيان بالنسبة إليه غير مفهومين غائمين، من غير الجائز أن يعترضا طريق إرادة تعي أهدافها». هذا التصور تبناه أيضاً كايتل، الذي كان يميل كقائد أعلى للقوات المسلحة إلى الحديث عن «مناورات تضليلية»

(1) فارليمونت: مرجع سابق، ص 256.

و«ألاعيب لاسلكية»، حين كانت اتصالات الجيش البرقية تستمع إلى الاتصالات اللاسلكية للوحدات السوفياتية الكبيرة، أو كانت تحدد مواقع تجمعات قوى ضخمة. في هذه الحالات، كان «فوق» يعلن ببساطة أن الفرق ليست غير أفواج. بينما كان هتلر يرفض تصديق المعلومات حول تزايد التفوق العسكري السوفياتي وتعاظم خطره. ولأنه كان يرفض الاستماع إلى تشخيص وتحذير استخباراته المتخصصة بالعدو وتحذيراتها، فإنه كان يمتنع عن إصدار أوامر باتخاذ التدابير المضادة الضرورية، وهكذا تتابعت الهزائم منذ سنة 1943 الواحدة تلو الأخرى، إلى أن وقعت الكارثة العسكرية والسياسية الشاملة. إن الضرورة المطلقة، بل والحق التاريخي في الدفاع الشرعي ضد من أصابه الغرور والعمى، كما حاول الأمير شتاوفنبرج ممارسته يوم 20 تموز/يوليو سنة 1944 (يوم محاولة اغتيال هتلر بقنبلة وضعت تحت طاولته، نجا منها بأعجوبة ـ المعرب) يبدو في ضوء أشد سطوعا بفضل هذه المحاولة: إذ لم يكن أمرا قليل الأهمية أن جميع المشاركين في المؤامرة كانوا ينتمون إلى الحلقة الداخلية من قيادة القوات المسلحة العليا والقيادة العليا للجيش، ويعرفون ما يكفي من معلومات دقيقة حول وضع ألمانيا الحقيقي والحرج. هذه العتمة العقلية من جانب، والنشوة المصطنعة من جانب آخر، التي زادت منها مخدرات الطبيب الخاص المشبوه دكتور موريل، صعدت سلوك هتلر وحولته في النهاية إلى جنون بمعنى الكلمة الحرفي، قاد الرايش إلى الهاوية.

استقبل هتلر رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، رجل القرار في الاستخبارات المتخصصة بالعدو، أربع مرات فقط بين سنتي 1942 و1945[1]، فلم تتح له الفرصة لشرح تقاريره السرية ومصادرها الموثوقة غير

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 61.

هذه المرات الأربع، التي قوبل خلالها بالشك والرفض، وأخيراً بالغضب. وقد «طرده» هتلر من منصبه يوم 9 نيسان/ أبريل من سنة 1945، بعدما وصف إشارته إلى الهجوم العام الوشيك على برلين «بالغبية تماما». لم تعرف الحرب العالمية الثانية قائدا أعلى وصلته معلومات سرية أفضل من تلك التي وصلت إلى القائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة، وجمعت القسم الأكبر منها مصادر من الدرجة الأولى، كانت تعمل في مراكز قيادة العدو، فلا يجوز أن نتجاهل ما كان بوسع قائد حرب حقيقي فعله بمعلومات كهذه[81]. كانت قيادة الحرب ولا تزال فنا يتطلب موهبة خلاقة، ترى تصورات الألمان أنها يجب أن تقوم على أرضية علمية، وتخضع لاختبار العقل ورقابته. هذا الموروث داسه هتلر بقدميه.

لم تستخدم الاستخبارات المتخصصة بالعدو الجاسوسية إلا في حالات خاصة، لأنها أثبتت منذ سنة 1941 جدارتها وتميزها في الشرق قبل كل شيء. من ذلك أنه وصلت يومي 4/ 12/ 1942 و 21/ 2/ 1943 أنباء مهمة من موسكو، جمعها الاستطلاع المضاد، تسمح بمعرفة نوايا الروس حول مجريات الحرب اللاحقة[82]. نجحت الاستخبارات المتخصصة بالعدو، عموما، في تطوير نظام محكم من الطرق المساعدة، يعرف كيف يلتقط الإشارات ويقومها بذكاء. حدث هذا بفضل لائحة الخدمة المسماة الاستخبارات المتخصصة بالعدو، التي أوعز هالدر بها، فظهرت في الوقت الملائم وشرفت هذا الرأس العلمي، بأن أكدت قبل كل شيء على ضرورة أن تبقى الاستخبارات بمنأى عن الآراء المسبقة، وتفحص بدقة مضمون جميع المعلومات التي تصلها، وتستخدم كل أمكانية من إمكانات الإعلام لجمع المعلومات عن العدو أو لفحص المعارف المتوفرة حوله وتعميقها. وقد حددت اللائحة فرص الاستطلاع اللاسلكي البعيد في المجالين التكتيكي والعملياتي، وكذلك الفرص الأخرى، التي توزعت بين الاستطلاع الجوي

والبري مرورا باستنطاق الأسرى وصولا إلى الخطة الإجمالية لاستطلاع الحرب، الذي يشمل المسائل الآتية:

الحشد
قيادة العمليات
التنظيم الحربي
التسليح
الإجراءات القتالية
القيمة القتالية
نظام النقل وإمداد الجيش الميداني
نظام تعويض الخسائر

وأدرجت في عداد الأوراق التي يجب الحصول عليها، لأهميتها بالنسبة للعمل التركيبي الذي تنجزه الاستخبارات المتخصصة بالعدو: الأوامر، والوثائق، والخرائط، والتوجيهات، والمسودات، والرسائل، وبطاقات البريد، ودفاتر الملاحظات، واليوميات، ودفاتر الحسابات، والصور الضوئية، وأشرطة الأفلام، وأشرطة التلغرافات، والمفاتيح السرية، وكتب الإشارة، والأسماء السرية، وعلامات النداء.

هذه المواد، وقعت بكميات هائلة حتى سنة 1943 في أيدي الألمان في الشرق. وقد انصرف مئات المترجمين والمتخصصين في شؤون العدو إلى غربلتها وتقويمها، كما تعاملوا مع معارف وصلتهم من الاستطلاع اللاسلكي وجزئيا من شعبة التنصت، التي كانت مكلفة بتقويم المخابرات الهاتفية التي تم الاستماع إليها. بذلك يستطيع المرء القول: إنه تم اختراق جميع أسرار الجيش الأحمر على وجه التقريب، وكذلك أسرار التسليح السوفياتي اللاحق ولكن هذا حدث بعد بدء الحرب سنة 1941. كما تم الاعتراف أيضاً برغبة

ملايين كثيرة من الرعايا السوفيات في التحرر، من خلال مفاوضات تضع نهاية سياسية للحرب في الشرق[1]. وكان أمرا مفهوما أن يأتي تصور التحرير السياسي من شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة الجيش العليا، التي كان العاملون فيها الجهة الأكثر انهماما بهذه المسألة، التي استمعت إلى أكثر الأصوات تنوعا حولها. وقفت الشعبة كذلك وراء عملية «الشريط الفضي»، التي كان يراد لها أن تكون الخطوة الأولى نحو تراض سياسي متبادل. لكنه كان على الألمان إخفاء قصدهم هذا، بسبب مقاومة هتلر، الذي كانت أهدافه مختلفة كل الاختلاف عن ذلك.

(1) انظر شتريكفيلد شتريك: ضد ستالين وهتلر، الجنرال فلاسوف وحركة الحرية الروسية، الطبعة الثانية، ماينز 1970.

obeikandl.com

الفصل الثاني

عملية الشريط الفضي

هل كان من الضروري أن تقود حرب الشرق إلى كارثة؟. ألم يكن بإمكان العقل تدارك العبث العسكري والفجور السياسي، ولو في وقت متأخر؟. ثمة ما يدفعنا إلى الافتراض بأن هذه الأسئلة طرحت أول الأمر على العاملين في الاستخبارات المتخصصة بالعدو، الذين عرفوا نقاط ضعف النظام السوفياتي ونقاط قوة الروس في آن معا، وكفلت الموضوعية ما نقلوه وقوّموه من أنباء ومعلومات، وكانت ضمانة عملهم الآن أيضاً، وهم يحاولون القيام بخطوة أخرى، واستخلاص النتائج العملية لنشاط استخباراتهم المتخصصة بالعدو، الذي يجب أن نراه من زاوية الموضوعية في الشرق أيضاً، حيث لعبت لحظة نفسية مهمة دور حاملها هنا، وتجسدت في ما يأتي: من يتعامل لفترة طويلة ومكثفة مع العدو، ويأخذ بمناهج علمية في تعامله معه، يقلع عن كرهه، ويبدأ في فهمه وإدراك طبيعته ومصالحه الحياتية، فيتضاءل بمرور الوقت الاستقطاب الذي يقسم البشر إلى صديق وعدو، وتبرز في جميع الأحوال نظرة ترى أن عدو اليوم هو صديق أو حليف الغد المحتمل، على غرار ما يحدث في عالم السياسة. هذه اللحظة بالذات تنكرها جميع النظم الشمولية، لأنها تجعل مطلبها الرئيس، الذي يقول «ب» كل شيء أو لا شيء»، «الرضوخ أو الإبادة»، مطلبا عبثيا، خصوصاً وأنه لا توجد بالنسبة إليها تسويات وحلول وسط استراتيجية، فإن

وجدت، اقتصرت في أحسن الأحوال على التكتيك.

كانت شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» تلح على موضوعية الحكم. وكان هذا يغضب هتلر، لشعوره أنه يثيره ويحرجه. وكانت طبيعة هذا المتشرد لا تطيق التوافق والتوازن، لذلك نحت الجنرال كوسترنيج، عندما شعرت بميله إلى الروس، بينما ضمته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» إلى صفوفها مستشارا ودليلا، ثم عينته نهاية أيلول/سبتمبر من سنة 1942 «جنرالا مكلفا بشؤون القوقاز»، وجعلته يوم 13 حزيران/يونيو 1943 مفتشا للوحدات التي تضم أبناء الشعوب التركية، وفي الأول من كانون الثاني/يناير 1944 جنرال وحدات المتطوعين في قيادة الجيش العليا. وقد عبر الارتباط الوثيق بينه وبين شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» عن نفسه من خلال مبادرة قيادة الجيش العليا إلى تعيين العقيد هيرره من هذه الشعبة رئيس أركان له[1]. ثمة هنا ما يجب أن يقال حول هذه الوحدات: أسهم جنود الجيش الأحمر السابقون سنتي 1941 / 1942 في توضيح معظم ما له علاقة به، وقدموا المعلومات عن تنظيمه الحربي، وسلاحه، وطرقه وقيمته القتالية، ونظم النقل والتعويض فيه. وكان هؤلاء قد فروا سنة 1941 بالآلاف أو استسلموا من دون مقاومة جدية، فتجاوز عدد الأسرى الروس المليون حتى مطلع خريف تلك السنة، وبلغ في الأول من أيار/مايو سنة 1942 رقما لا مثيل له هو 3.6 ملايين. ينفرد النظام الشمولي، الذي لا يتردد في اتخاذ أي تدابير عنيفة، بقدرته على تحمل انهيارات كهذه. وقد قال كثيرون من هؤلاء الأسرى، وكان بينهم ضباط مرتفعو الرتب وخبراء، بصورة طوعية ما كانوا يعرفونه، بينما كانت الغنائم من الوثائق هائلة الحجم، الأمر الذي لم يسبق أن عرفت مثيلاً له أي حرب بين القوى العظمى الأوروبية. إلى هذا، كان هناك ظاهرة أخرى غير

(1) جيهلن، : مرجع سابق، ص 111.

مسبوقة في تاريخ الحروب، جسدها المتطوعون، وهم جنود سوفيات سابقون أرادوا الانخراط في القوات المسلحة الألمانية. لم يكن الألمان بحاجة هنا إلى تدابير إقناع أو تضليل خاصة، كما لم يكونوا بحاجة إلى استخدام العنف. عندما يفكر المرء بوفرة المعلومات التي أوصلها هؤلاء إلى الاستخبارات المتخصصة بالعدو، يعرف لماذا امتلكت بعد حين معارف متميزة عنه، ويدرك تفاهة ما نقلته «روته كابيله» من معلومات إلى الجانب الآخر. لكن دائرة إعلامية واحدة داخل القوات المسلحة أو خارجها لم تبادر إلى نشر هذه الحقائق، فاقتصرت معرفتها على حلقة ضيقة من المتخصصين، فضلا عن القوات المقاتلة، التي شهدت بين 1941 و 1944 اخوة سلاح روسية ألمانية واسعة، حظيت باعتراف صامت، وقامت على الاختيار الحر لمئات آلاف الجنود الروس، الذي بلغ أوجه دون أمر من فوق، حين أعلن الجنرال السوفياتي فلاسوف عقب أسره على الفولشوف استعداده للقتال إلى جانب الألمان في إطار جيش تحرير روسي قومي[1].

وقع حادث الشريط الفضي الأسطوري سنة 1942، لكن الوقت كان قد فات بعد «القلعة» سنة 1943، حين كانت الهزيمة الألمانية قد صارت مؤكدة. قبل هذا الحدث، كان هناك إمكانية لإعطاء حرب روسيا العبثية معنى، بإيجاد نهاية سياسية لها يتم بلوغها عبر تحويلها إلى حرب تحرير روسية. اتضح، في الفترة الماضية، أن قوات هتلر المسلحة وحلفاءها ليسا في وضع يمكنهما من إملاء السلام على روسيا، إلا بقدر ما تمكن جيش نابليون العظيم من إملاء سلامه عليها سنة 1812. بدورهم، لم يتمكن الروس من هزيمة الألمان سنة 1941/ 1942، لأنهم لم يكونوا قد أتقنوا بعد قيادة العمليات العسكرية الكبيرة. ثم إن سنة 1945 كانت أشد سوءا بالنسبة

(1) انظر ستريك ـ ستريكفيلد وجيهلن، ص 93-116.

للألمان مما كانت سنة 1812 بالنسبة إلى جيش نابليون، لأن الكارثة النهائية ابتلعت خلالها مجموع الأقاليم الشرقية الألمانية وسكانها. بالمناسبة، كان هناك إشارة كلاسيكية إلى احتمال إيجاد مخرج من خلال إنهاء الحرب سياسيا: فقد لفت جنرال ديتمار، وكان آنذاك الناطق الإذاعي باسم الجيش، نظرنا في صيف سنة 1942 إلى مقطع لدى كلاوزيفيتز، كان صحيحاً بالأمس مثلما هو صحيح اليوم، طلب إلينا قراءته، يقول: «ليست الامبراطورية الروسية بلدا يستطيع المرء الاستيلاء عليه رسميا، أي إبقاءه محتلا، أقله ليس بقوى الدول الأوروبية الراهنة... إن بلدا كهذا لا يمكن قهره إلا من خلال ضعفه الخاص، أو عبر المؤثرات الناجمة عن انقساماته التناحرية الداخلية. للوصول إلى مواقع ضعف وجوده السياسي، من الضروري إحداث زلزال يصل إلى قلب الدولة»[1]. هذا الزلزال كاد الألمان يحققونه سنة 1941/ 1942، خاصة في أوكرانيا ثم في بلدان البلطيق، التي احتلها ستالين، ولدى عشرات آلاف المنتمين إلى شعوب أجنبية، ممن خدموا في الجيش الأحمر ورأوا في الألمان محررين يجب الترحيب بهم، الأمر الذي أحدث تشققات وفوالق في «صورة العدو»، وجعل من المنطقي أن يطرح المتخصصون به شعار التحرير بدلاً من الاحتلال، الذي لم يطرحه فرد بعينه، بل جرى تداوله ببساطة من فم إلى آخر، بينما كانت القوات تعمل بصمت في هدي هذا الهدف، وتدمج أسرى الحرب الروس، الذين يبدون رغبتهم في التطوع، ضمن الوحدات الألمانية، إلى أن تشكلت، بعد حين، وحدات خاصة بكل بلد في مناطق الشرق المحتلة، أقامت الأمن داخله، بل ان هتلر نفسه أمر بعد معركة تطويق أمان سنة 1942 في أوكرانيا بترك أسرى الحرب الأوكرانيين يعودون إلى بلدهم، ليعملوا في الزراعة. لم يعرف أحد بدقة

(1) كلاوزفيتز: عن الحرب، كتاب جيب، طبعة ثانية، بفافنهوفن 1969، ص 235.

عدد هؤلاء المتطوعين، لكن جيهلن كان قريبا من الحقيقة في مذكراته[1]، حين قدر عددهم صيف سنة 1942 بـ 700 ألف إلى مليون رجل. كانت «وحدات الشرق» تتكون من 176 فوجا و30 كتيبة مستقلة، وكان جيش روسي كبير يقاتل فعليا إلى جانب قوات الألمان المسلحة. لذلك اعتقد مساعدون كثيرون لجيهلن أن الخطوة التالية يجب أن تكون الإعداد لحكومة روسية قومية، وجعلوا ما سمي لجنة سمولنسك تنجز الأعمال التمهيدية لذلك، فكان العقيد شتيف والرائد شتاوفنبرج من شعبة تنظيم الجيش يدعمان هذه الخطط بما أوتيا من قوة، حتى توصلا في خريف سنة 1942 إلى الحصول على ترخيص بتشكيل «شعبة دعاية روسية»، كان أهم شخص فيها خبير روسيا وصديقها المقدم ستريك ـ ستريكفيلد، نسقت خطط شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» وشعبة الدعاية في القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة[2]. وقد حدث هذا كله قبل ستالينجراد. من الصعب أن نتجاهل كيف كانت الصياغة السياسية الجديدة لأوروبا المهدأة ستتحقق، لو قيض لهذه التطورات أن تستمر، لأن تحققها كان يتطلب وجود رجل دولة ألماني يحتل التوازن السياسي مكانة أرفع لديه من القوة العسكرية والمغامرة. ولأن مثل هذا الرجل لم يكن موجودا، اقتصر العمل من أجل هذا الهدف على قادة الاستخبارات المتخصصة بالعدو، الذين شاركهم طموحهم الفاعلون الرئيسون من رجال العشرين من تموز/ يوليو سنة 1944. هذه هي الطريقة التي يجب أن نرى في ضوئها ترابط أحداث تلك الحقبة، التي عرف الساخطون فيها ما كانوا يريدون، وخاصة منهم الأمير شتاوفنبرج. لكن هتلر بقي عصيا على التعلم، شأن سائر الأيديولوجيين المتعصبين، ورفض التسوية

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 106–110. كان المؤلف يعرف بصورة دائمة هذه الوقائع.
(2) يعرف المؤلف هذا شخصيا. انظر: ستريك –ستريكفيلد، ص 97 وما يليها.

السياسية في الشرق، مثلما رفض معرفة أي شيء عن الانبعاث المتعاظم للجيش الأحمر منذ نهاية سنة 1941، بفضل جهود ستالين الحثيثة. لهذا السبب، ضاعت تحذيرات شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» قبل ستالينجراد، وكانت قد عرفت بالحشد السوفياتي من الاستطلاع اللاسلكي[83]. لم يبد هتلر أي استعداد للقيام ببعض «الإشارات» التصالحية إلا بعد ستالينجراد، وقبل مشروع الهجوم الأخير، المسمى «القلعة»، لكنه وافق عليها في صورة خدعة أخذت شكل منشور طالب الروس بالفرار من الجيش. والحق، أنه تمت مناقشة هذا الموضوع يوم 8 حزيران/يونيو 1943، وأن نص المناقشة المختزل بقي سليما لحسن الحظ، يظهر مدى العمى الذي كان قد أصاب القائد الأعلى الألماني. أقدم فيما يلي نصا مختصرا جداً لنقاش 8/ 6/ 1943[1]:

كايتل: انطلاقاً من نظرة إجمالية، تطرح بالنسبة إلي مسألة التعامل مع أسرى الحرب، والمتطوعين والأفواج التابعة لبلدانها في الشرق على النحو الآتي في اللحظة الراهنة... إن مجمل دعاية فلاسوف، التي طورها من نفسه كما يقال، تقدم أرضية للدعاية الكبيرة الجارية تحت كلمة سر «الشريط الفضي»، هي الدعوة إلى الفرار من الجيش الأحمر. وقد خرجت من هناك مناشير اتفقنا على مضمونها مع وزير الرايش روزنبرج، وكذلك مع وزير الشرق آنذاك. لقد ناقشناها كلمة كلمة، فأقرها ووافق عليها، لتبدأ أول أيار/ مايو ما أود اعتباره عملية شاملة.

تشيتسلر: وقد تعلق قسم منها بالتعامل السليم مع الكتلة الكبرى.

كايتل: عندما يفرون إلينا، فإنهم سيحظون بمعاملة خاصة. هذا هو المنشور رقم 13.

(1) هلموت هايبر: نقاشات هتلر للوضع، كتاب جيب دت ف 120/ 121، ص 109 وما يليها.

الفوهرر: لقد رأيت المنشور رقم 13.

كايتل: لقد اتخذنا تدابير لاستقبال الفارين في معسكرات خاصة، ولمعاملتهم بطريقة لائقة تماما.

الفوهرر: هذا كله حسن.

كايتل: وحرصنا أن يتمكنوا بعد ذلك من اختيار خيارات مختلفة، كأن يصبحوا عمالا عاديين، وثانيا متطوعين، وثالثا ربما أعضاء في وحدات تابعة لبلدانها.

الفوهرر: هذا ليس مذكورا في المنشور.

تشيتسلر: كلا، ليس مذكورا في المنشور رقم 13.

كايتل: لقد قيل هذا فيما بعد في التحديدات التمهيدية. وهم سينقلون إلينا بعد فترة معينة. هذا ما أعلنه جنرال قوات الشرق، كما نمي إلي. عندما سيثبتون أهليتهم بعد فترة اختبار معينة، يستطيعون اختيار ما يريدون استخدامهم فيه، وسيسمح لهم، في شروط معينة، بممارسة ما وقع اختيارهم عليه، أي أنهم سيصيرون إما متطوعين أو جنودا في وحدات تابعة لبلدانهم. هذه الدعاية الكبيرة اعتمدت على المنشورات، التي حملت توقيع اللجنة القومية أو اللجنة القومية الروسية، وتضم الأمر الرئيس، المحوري، الذي يجب علي إبلاغهم به مرة أخرى، ويضاف إلى الأشياء الأخرى الكثيرة، التي نقولها دوماً ـ ستتلقون طعاما جيدا، وستلقون معاملة حسنة، وسيكون لديكم عمل، وستعودون إلى وطنكم، وبالنسبة للمستقبل: لن يحافظ الرايش الألماني فيما بعد على النظام السوفياتي، ولن يحافظ على تأميم الأرض... الخ، وكذلك: تعالوا إلينا. عندما تأتون إلينا، ستستطيعون الدخول في جيش الحرية القومي الروسي. هذا مكتوب فعلا في المنشور.

الفوهرر: كان يجب إطلاعي على المنشور من قبل.

كايتل: علينا تصحيحه الآن في هذا الاتجاه. هذه واحدة من النقاط، التي ليست بالتأكيد حاسمة بالنسبة إلى هؤلاء الناس، لكنها لعبت على كل حال دورا ما.

الفوهرر: لسنا بحاجة إلى جعل الأشياء مأسوية. أنا أرى اليوم شيئاً واحدا في هذا كله، هو بالنسبة إلي الأمر الحاسم: علينا أن نتجنب تشكل رأي خاطئ لدينا نحن. وعلينا أن نفرق بين الدعاية، التي أوجهها إلى هناك، وبين ما نفعله نحن في نهاية الأمر.

كايتل: ما نفعله وراء جبهتنا.

الفوهرر: وما نعتقده قبل كل شيء. يجب أن نتحاشى ترسيخ رأي لدينا يظن أنه يمكن عمليا عن هذه الطريق، لنقل، إيجاد تسوية...[1] هذا هو الخطر اليوم. يستطيع المرء القيام بالأشياء الأخرى أيضاً، شريطة أن لا تستخلص منها أي نتائج، مهما كانت قليلة الأهمية، وعلى أن نتفادى، قبل كل شيء انتشار مزاج حولنا، وجدته للأسف لدى بعض السادة، كما وجدت صدى له مرات كثيرة لدى كلوجه أيضاً: «إننا نخفف الأمور على أنفسنا، إذا ما بنينا جيشا روسيا». استطيع أن أقول هنا شيئاً واحدا فقط: لن نبني أبدا جيشا روسيا، فهذا وهم من الدرجة الأولى...

كايتل: اسمح لنفسي بالقول في هذه الحالة: إننا ننظر إلى صاحب هذه المنشورات الدعائية، أي إلى اللجنة القومية، التي يوقع الجنرال فلاسوف باسمها، كأداة دعائية صرف.

(1) لنص مكثف جدا (بعد أجزاء الحديث أهملت أو تم القفز عنها)

تشيتسلر: علينا وضع خط فصل كبير هنا. بوسعنا فعل كل شيء، إن كان سيذهب إلى العدو. أما في الداخل فالأمر مختلف تماما. هذا خط فصل.

تبخرت عملية المنشورات، بسبب وضع الحرب في الشرق خلال شهر أيار/مايو من سنة 1943. وقد كان توقيتها متأخرا على كل حال. جاءت ستالينجراد بالتحول النفسي بالنسبة إلى الجيش الأحمر، مثلما جاءت سياسة الاحتلال النازي بالتحول عينه بالنسبة إلى الروس والأوكرانيين في منطقة الاحتلال الألمانية. ومع أن أخبار ما جرى اجتازت الحدود، فقد كان من الضروري القيام بالمحاولة، أقله من أجل تقديم حل سياسي إلى هتلر، بهذا الطريق، حتى إن اقتصر هدفه على معرفة رد فعله. وضع العقيد السابق مسودة المنشور رقم 13، وأقره رئيس أركان الجيش الجنرال تشيتسلر. لكنه لم يأت متفقا مع أرادته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، فبقي كضربة في الماء، خاصة وأن الهجوم ضد قوس كورسك، أو عملية «القلعة»، التي كان سيلقى به من الجو خلالها، قد تأجلت المرة تلو الأخرى، وأنه ألقي به كعمل معزول ليلة 6 / 7 أيار/مايو 1943، فلم يجلب نتائج تستحق الذكر، ولم يصل إلى الخطوط الالمانية غير بضع مئات من الفارين، كان عددهم ذاته علامة على وقوع التحول. بذلك ضاعت فرصة سياسية من الطراز الأول.

أذكر في هذا السياق أن للاستخبارات المتخصصة بالعدو مهام سياسية أيضاً، منها التفاوض معه حول تبادل الجرحى ونقلهم، وإرسال ضباط هدنة[1]، عندما يتوقف إطلاق النار مكانيا، ومنها كذلك قيادة مفاوضات الهدنة، واستكشاف إمكانات السلام المحتملة. وقد كرس جيهلن فصلا

(1) كان المؤلف، كضابط نظامي لدى استخبارات قيادة الجيش العليا، واحدا من 18 ضابط هدنة أداروا مفاوضات تسليم باريس يوم 13/ 14 حزيران سنة 1940.

خاصا من كتابه لعوامل الحرب السياسية والعسكرية والنفسية، قال فيه إلى جانب أشياء أخرى[1]: «في مجرى الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، اتضح بصورة متزايدة منذ مطلع سنة 1942 على أبعد تقدير أن الجنود يعملون أكثر فأكثر لتجريد الحرب من طابعها الحصري كفعل عنف، ولتفعيل العنصر السياسي من خلال مشاركة الشعوب الروسية الإيجابية في الصياغة، التي يجب جعلها ممكنة لأهدافها. على عكس هذا السلوك، رفضت القيادة ـ هتلر ـ بعناد جميع المتطلبات، التي حملت هذا الطابع... أقفل هتلر أبوابه أمام أي حل سياسي. لا يسعنا التأكيد بما فيه الكفاية أن الجندي ـ بصورة غير واعية إلى حد ما لدى المراتب الدنيا وواعية لدى المراتب العليا ـ عرف أن قيادة هتلر الحربية تخلت عن أولوية السياسة لمصلحة حسم عسكري شامل». حدثت مناقشة الوضع، التي استشهدنا بها، يوم 8 حزيران/ يونيو من سنة 1943، وهو تاريخ من الأهمية بمكان الانتباه إليه، وإلى الوضع الحربي الذي كان قائما آنذاك في الشرق، حيث مني جيش المانيا في بداية العام بأول هزيمة ماحقة في ستالينجراد، كان تفاديها ممكنا، بما أن الاستخبارات عرفت نوايا العدو في الوقت المناسب[84]، كما يؤكد ألبرت براون في دراسة غير منشورة، قبل أن يستنتج ما يأتي[2]: «لم يستخدم الروسي التضليل العملياتي على الإطلاق. وتقتصر نجاحاته المفاجئة الكبرى ـ روستوف، موسكو، ستالينجراد ـ على الحالات، التي لم تصدق فيها القيادة العسكرية الأعلى الاستطلاع اللاسلكي الألماني، واعتقدت أن الروس يمارسون مثل هذا التضليل». في آذار/ مارس من سنة 1943، أعاد ف. مانشتاين القيادي وقوة الاحتياطي العملياتي، الذي كان قد استقدم من الغرب، وضع النقاط

(1) جيهلن: مرجع سابق، ص 99.

(2) وضع النص تحت تصرف المؤلف.

على الحروف من جديد، واستقر خط القتال جنوبي الجبهة الشرقية على الميوس والدونتيز. في هذه الفترة، استخدم مانشتاين معلومات الاستخبارت كأساس لقراراته، وعادت الحرب الروسية إلى التأرجح مرة أخرى، بينما كانت الحرب في أفريقيا تبلغ نهايتها، وألمانيا تتكبد مجددا خسائر فادحة تجعل من المنطقي توقع قيام الحلفاء الغربيين بقفزة نحو البر الأوروبي. في هذا الوضع، عرض جيش روسي قومي القتال إلى جانب الألمان، بشرط واحد هو اعتراف قيادتهم بالمصالح السياسية للقوميين الروس، الذين أرادوا عونها من أجل تحررهم، من دون أن ينحطوا إلى مجرد شعب مساعد لقوة شمولية أخرى.

جاءت عملية منشورات «الشريط الفضي» في سياق هذا الوضع العسكري المتأرجح، بيد أنها لم تكتمل، لأن قيادة القوات المسلحة الألمانية لم ترد لها أن تكتمل. وعلى كل حال، فإنها كانت اختبارا نفسيا للروس، كما اعتقدت شعبة استخبارات مجموعة جيش الجنوب (فون مانشتاين)، في حين كانت نجاحاتها القليلة صرخة تحذير تعلن أن زمن الفارين والأسرى قد ولى، وأن الجيش الأحمر ترسخ واكتسب التجانس، الذي كان ينقصه من قبل، بسبب الانطباع الذي أحدثه انتصار ستالينجراد الكبير، وأنه لن يكون هناك، من الآن فصاعدا، أي فرصة لإنزال الهزيمة به بواسطة وسائل وأدوات عسكرية صرفة. رفض هتلر رؤية هذا الجانب بالذات، بعد أن بلغ عماه بالتدريج درجة المرض. هذا ما كانت تعرفه دائرة صغيرة من المطلعين، تعرضت بصورة مباشرة لعناده. قبل «القلعة»، حذرت الاستخبارات المتخصصة بالعدو من أن التأجيل المتكرر لموعد الهجوم[1]، مكن القيادة السوفياتية من اتخاذ جميع التدابير الدفاعية الضرورية، ومن تعزيز الحشد،

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 86 وما يليها.

الذي كان يستطيع الانتقال إلى الهجوم المعاكس بمجرد توقف الهجوم الألماني.

لم يكن الأمر يدور هنا منذ بعض الوقت حول إدراك هتلر العسكري بوجه عام، بل كان ينصب على استراتيجيته السياسية. صحيح أنه كان يمتلك معرفة عسكرية وذاكرة غير عادية، يستطيع بمعونتهما خداع سامعيه والتأثير فيهم. لكن هذا لم يعد منذ سنة 1941 هو القضية، التي تمحورت خلال الحرب العالمية الثانية حول ضرورة وجود رجل دولة ومحارب، لم يجسد هتلر أيا منهما. مثل هذا الرجل، كان باستطاعته، في الحد الأدنى، التعلم من أخطائه، وكان سيأخذ في اعتباره أيضاً العمل لإيجاد نهاية سياسية للحرب في الوقت المناسب، بدلاً من أن يربط كل شيء بورقة «سلام» يتحقق عبر انتصار حربي، على غرار ما فعله لودندورف سنة 1918. أما من الناحية العسكرية الصرف، فتبين أن القائد الأعلى لقوات ألمانيا المسلحة لم يكن أهلا للقيام بمهامه، بعد سنة 1943: وإلا لترك القرارات الحاسمة على الجبهة لقادته، ولاكتفى بتكليفهم بمهام ممكنة التحقيق، بدلاً من أن يتدخل في القيادة التكتيكية حتى مستوى الأفواج، رغم أنه بقي دوماً بعيدا عن الجبهة. لماذا سرح أفضل قادة جيشه المارشال فون مانشتاين مطلع سنة 1944، عوضاً من أن ينقل إليه الإمرة العليا على الجبهة الشرقية، ويمنحه حرية القيام بالعمليات العسكرية؟. ولماذا رفض أن يصغي إلى استخباراته المتخصصة بالعدو؟. من المحال تفسير تدبيريه هذين بأسباب نفسية فقط، أي بالعناد وادعاء العصمة، مع أنه اتسم بهاتين الصفتين ومال إليهما، ويجب فهم قراراته انطلاقا من انهيار وعيه الذاتي النقدي، نتيجة إساءة استخدامه المتواصل من خلال الوسائل التهييجية. لقد كانت الاستخبارات الألمانية تعمل في فراغ، مع أنها أفضل جهاز استخبارات قيض لجيش ألماني امتلاكه في أي وقت.

أخبار العدو

قام استطلاع اللاسلكي خاصة بإنجازات خارقة، تؤكدها أمثلة أوردها هنا، أخذتها من تقارير لم تطبع بعد ـ لكنها في حوزتي[1] ـ. يورد أحد التقارير نصاً حول الاستعدادات العملاقة، التي قام بها السوفيات قبل هجوم بارانوف نهاية سنة 1944: «جرى هذا الفيلم المأسوي وفق ترسيمة النظام اللاسلكي السوفياتي الروسي، المعروف لدينا منذ سنوات. لكن المشاهدين كانوا عاجزين عن درء الفاجعة، التي كانت في طور الإعداد، ثم انقضت عليهم بقوة رهيبة. وقد عرف الاستطلاع الاستخباري الألماني، الذي كان قد تحسن في هذه الأثناء واكتسب المزيد من المهارة، مرة أخرى العلامات الأكيدة للهجوم المقبل: حشد مهندسي الجيش، مدفعية الجيش، وحدات المدفعية الصاروخية، الذي أظهر في وقت مبكر النقاط التي ستصب عواصفها النارية عليها. ورأى الاستطلاع حشد الجيوش، وتنظيم «الجبهات»، التي تطابقت تقريبا مع مجموعات الجيش الألماني. واستمع إلى المحادثات العملياتية المتحفظة، التي فسرها مقومو السبر والاتصالات، والتقطت أخيراً كما هائلا من الرسائل البرقية والمخابرات الهاتفية، كأنها سربت مئات المتنصتين إلى مقرات السوفيات الرئيسة جميعها». صحيح أن فرق الجبهة والوحدات المدرعة المتحشدة حافظت على صمت لاسلكي تام، لكن قوات الجيش ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية بصورة خاصة لم تكترثا للأمر. وأخيرا، باحت الاتصالات اللاسلكية مع الجبهات المختلفة، التي أجرتها مجموعات استطلاع أرسلت في وقت مبكر إلى ما وراء خطوط الالمان، بالأهداف الحقيقية للعمليات المقبلة. هكذا نشأت من مزق لاسلكية متفرقة صورة هجوم بارانوف الوشيك الكلية.

(1) مخطوط آلة كاتبة في حوزة المؤلف.

اكتملت هذه الصورة في مطلع كانون الثاني/ يناير من سنة 1945. فقد راقب الألمان كيف تقدمت المواقع القتالية إلى الأمام، وكان بإمكانهم التنبؤ بثقة بموعد انفجار العاصفة في الثاني عشر من الشهر ذاته. وقد نقل الجنرال جيهلن هذه المعلومة الفريدة إلى رئيس الأركان العامة العماد جودريان، الذي وعد بتمريرها إلى الجهات الأعلى. غير أن هتلر كان في هذا الوقت في مقر الفوهرر الصغير، «عش النسر»، منشغلا بهجوم الأردين الألماني، الذي لم يحقق النجاح المطلوب. لقد كان اهتمامه مكرسا للغرب، بذريعة أنه تم فعل كل ما هو ضروري لصد الهجمات السوفياتية في الشرق، لمجرد أن المدافعين نزلوا إلى حفرهم وخنادقهم، متجاهلا أن ما كان ممكنا في السابق صار مستحيلا اليوم، وان مجموعة جيش الوسط واجهت منذ صيف 1944 150 فرقة مشاة سوفياتية و45 فرقة مدرعة باثنتين وأربعين وحدة ألمانية كبيرة، وأن نسبة القوى السوفياتية الألمانية بلغت 4.5 إلى 1، فكان من الطبيعي أن تنهار مجموعة جيش الوسط، ويشكل الجيش الأحمر في نهاية آب/ أغسطس من سنة 1944، ثلاثة رؤوس جسور عملياتية كبيرة غرب الفايكسل، هي بارانوف وبالافا وماجوسيف، توقف هجومه فيها في بداية أيلول/ سبتمبر، واستراحت قواته وأخذت قوات استراحة قتالية، استغلها هتلر لإعداد هجوم الأردين، الذي اعتبره المختصون ضربا من جنون مطبق، بما أنه كان يجب اعتبار الشرق من دون أي شك نقطة الثقل، التي يجب استخدام القوى المتوفرة فيها، لأن الخطر الأكبر: العسكري، والسياسي والإنساني، كان يأتي من هناك، لكن هتلر قرر الهجوم في الغرب.

عرفت الاستخبارات المتخصصة بالعدو بعد قليل تفاصيل ما سيجري: في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر عرف الاستطلاع الألماني من «مصدر موثوق» بالاستعدادات الجارية لهجوم كبير جديد ينطلق من رؤوس الجسور الثلاثة المذكورة. وكانت عملية إعادة تجميع القوات وتغيير انتشارها من وضع

هجومي إلى وضع دفاعي قد شوشت إلى حد بعيد صورة العدو في شهر تشرين الأول/أكتوبر. أما الآن، فكان الحشد الجديد واضحا، وتم رصد أربع مجموعات جيوش: اثنتان قبالة بروسيا الشرقية، واثنتان بين مودلين وبارانوف. كما كان من الصعب عدم رؤية نقطة الثقل في الجنوب، وكذلك الهدف العملياتي، الذي كان يشير إلى سيليزيا وفي اتجاه برلين. كان الرايش وعاصمته أمام تهديد مميت، وقد وضعت التقارير عن ذلك أمام هتلر، لكنه كان مشغولا بهجوم الأردين، لأنه كان ينتظر منه حسم الحرب. في هذه الأثناء، كانت الغلبة السوفياتية على الفايسكل تزداد خطورة، وما إن جاء يوم 9 كانون الثاني/يناير، حتى كانت نسبة القوى 11 إلى 1 في المشاة، و7 إلى 1 في الدبابات، و20 إلى 1 في المدفعية، فكان التفوق الناري السوفياتي مخيفا. أما في نقاط الثقل، التي كان الهجوم سينطلق منها، فكان هناك 250 مدفعا على كل كيلومتر من الجبهة، وكان ممكنا هنا استكمال نتائج الاستطلاع البرقي بنتائج الاستطلاع الجوي، وقد جاءا بتفاصيل إضافية حول حشد المدفعية وانتشار الوحدات المؤللة والمدرعة، استعدادا للهجوم. بهذه الطريقة، تمت الحيلولة دون حدوث مفاجأة عملياتية، لأن وحدات الجبهة، والدوائر القيادية ورئيس الأركان العامة كانوا يعرفون ما الذي يجب أن يعدوا أنفسهم له. كما أن موعد الهجوم في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير كان معروفا بالنسبة لهم، وكان القرار الأخير حول تعزيز القوات بيد هتلر، لكن هتلر فشل، وأزاح معلومات الاستخبارات جانبا بفظاظة. كتب الجنرال جودريان في كتابه «مذكرات جندي»[1] حول هذا قائلا: «سافرت يوم 24 كانون الأول/ديسمبر إلى جيسن، ومن هناك إلى مقر الفوهرر الرئيس، وكان آنذاك «عش النسر» قرب تسيجنبرج في منطقة تاونوس، لأقدم له تقريراً شفهيا

(1) هلينس جودريان: مذكرات جندي، هايدلبرج 1951، ص 247 وما يليها.

يصف التنظيم المعادي ونسبة القوى. . . وكان عمل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» نموذجيا وموثوقا بصورة مطلقة، لأنني كنت أعرف رئيسه الجنرال جيهلن لفترة طويلة تمكنني من تقويمه وتقويم مساعديه وطرقه في العمل ونتائجها. ولقد أثبت تشخيصه صحته، لكن هتلر رأى الأمور بطريقة مختلفة، وأعلن أن معطيات الشعبة ليست سوى خداع، وأن وحدات المشاة السوفياتية لا تتجاوز في كثيرها سبعة آلاف رجل على أبعد تقدير، والوحدات المدرعة بلا دبابات. ثم صرخ: «هذه أعظم خدعة منذ جنكيزخان»، وتساءل: «من نبش هذه السخافة؟». تقول مذكرات جودريان بعد صفحات قليلة: «في التاسع من كانون الثاني/يناير كنت مجددا في تسيجنبرج، مصمما على عدم التراجع، وعلى وضع هتلر أمام مسؤولياته. قدمت تقريري أمام المجموعة المألوفة المحيطة بهتلر. . . وكان جيهلن قد أعد بعناية فائقة مستنداته حول وضع العدو، وأرفقها بخرائط وصور توضيحية تظهر بالملموس نسبة القوى. غضب هتلر غضبا شديدا، عندما وضعت هذه الأعمال أمامه، وقال إنها «غبية تماما»، وطلب أن احتجز فورا الشخص الذي أعدها في مشفى مجانين. تملكني عندئذ الغضب، وأوضحت له أن هذه الأعمال تعد إنجازا للجنرال جيهلن، أحد أكثر ضباط أركاني اجتهادا، وأنني ما كنت لأقدمها له، لو كنت لا اتبنى ما فيها. وأضفت: إذا كنتم تطلبون وضع الجنرال جيهلن في مشفى مجانين، فعليكم وضعي أنا أيضاً معه، قبل أن ارفض بشدة طلبه استبدال الجنرال جيهلن. بعد هذا انفجرت الزوبعة. . . لم يحقق التقرير أي نجاح عسكري، وكان الأمر مزعجا إلى أبعد حد». رفض هتلر تعزيز الجبهة الشرقية بالقول: «لا أريد فقدان المبادرة التي استعدتها على الجبهة الغربية». لكنه ما إن حل منتصف كانون الثاني/يناير، حتى كان قد أضاع المبادرة في الغرب والجبهة المتماسكة في الشرق، بعد أن انهار الحاجز الضعيف على الفايكسل، وبدأ الجيش الأحمر يتدفق

كالطوفان نحو الغرب، ليمحو بعد قليل حدود الرايش الالماني القديمة. يصف فارليمونت الوضع الجديد بالكلمات الآتية: «... تظهر الأحداث اللاحقة أن قيادة ألمانيا الأعلى لم تضع تصورا إعداديا في حال أخذت العاصفة المرتقبة من الشرق حجما خطيرا»[1].

رفض هتلر ببساطة الاعتقاد بوقوع عاصفة كهذه. ووصف بالـ«خداع الوقح» المعطيات التي قدمت إليه حول قوة الجيش الأحمر ونواياه، مع أنها أعدت بطريقة موثقة ومعززة بالأدلة. ولم يتلق جودريان غير أربع فرق مدرعة لتعزيز الجبهة الشرقية، وعاد إلى سوسن، التي أصبحت من جديد ما كانته عند بداية الحرب: مقرا رئيسا لقيادة الجيش العليا، مصحوبا بتوجيه يفتقر إلى الشعور بالمسؤولية، هو أن على الشرق مساعدة نفسه وتدبير أموره بما لديه.

لماذا أمكن لهذا أن يحدث؟

ثمة ارتباط سببي بين عناد هتلر المتأخر وبين النجاحات الأولى الساحقة، التي أسست «اسطورته». يقول التقرير غير المطبوع[2]: «والحقيقة أن هتلر قدر تقديرا حدسيا صائبا القدرات الحربية والقيمة القتالية لأعدائه الأوائل: البولونيين والفرنسيين، بل إن حدسه كان أكثر صحة من تقديرات مستشاريه العسكريين، التي ارتكزت على تجاربهم المستمدة من الحرب العالمية الأولى». لم يكن بوسع وسائل الاستطلاع السلمي أن تقدم غير إسهامات متواضعة يمكن بمعونتها الحكم على وضع العدو. لكن الأمر اختلف، عندما رمي النرد، وكشفت الأوراق، وتم تخطي فترة التحمية:

(1) فارليمونت: مرجع سابق، ص 526.

(2) مخطوط آلة كاتبة سبق ذكره.

عندئذ، قدمت الاستخبارات المتخصصة بالعدو إلى القيادة العليا الألمانية مستندات من شأنها جعل القيادة الناجحة ممكنة في أصعب الظروف، كانت فعليا مفيدة إلى درجة كبيرة بالنسبة إلى معظم دوائر القيادة، أتاح الاستطلاع الاستخباري الألماني لقيادة الاستخبارات المتخصصة بالعدو عبرها مستندات متميزة، سواء من حيث حجمها أم صدقيتها.

نجحت عمليات الاستخبارات في الشرق خاصة، حيث نمت من العمل المنهجي الصغير لمعالجي المعلومات معارف واضحه، تكاد تخلو من الثغرات وعلى درجة رفيعة من الصدقية، طالت قدرات الاتحاد السوفياتي الحربية، ونواياه التكتيكية والعملياتية، باعتباره العدو الأكثر قوة، الذي قاتله الجيش الألماني في أي وقت. هذه النجاحات كانت متفوقة بمراحل ومن أوجه كثيرة على مثيلتها في الحرب العالمية الأولى، مكنت القيادة من إلقاء نظرة عميقة داخل تطورات سياسية معينة، وتنبأت في الوقت المناسب بخروج إيطاليا من التحالف وبالتغيرات التي عرفها البلقان. إلى هذا، ترجع معرفة القدرة الحربية للولايات المتحدة إلى الشعبة المتخصصة، شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»[85]، التي لم تجمعها، على كل حال، بواسطة عملاء لاسلكي عملوا هناك، بل قدمتها لها الصحافة الأميركية، المفتوحة القلب دوما، وقدمها فرانكو، كما نعلم. هذه المعلومات، لم تحدث بدورها أي أثر لدى قائد الحرب الأعلى للرايش الالماني، الذي تحول «اقتناعه المطلق» بصحة حدسه إلى ضرب من الخرف الفكري في النصف الثاني من الحرب. وعندما سقط سيار الليل، جذب معه الجيش، أو ما كان قد صمد منه، إلى الهاوية، ومعه الرايش والشعب المنهك حتى الموت.

عمل الاستطلاع البرقي، الذي صار اسمه الآن الاستطلاع عن بعد، بالدقة المألوفة وحقق نتائج خارقة، حتى قبل الكارثة الوشيكة مباشرة.

هكذا، استطاع أن يضع خلال أسابيع الحرب الأخيرة من سنة 1945 أمام القيادة الألمانية العليا التاريخ الدقيق للهجوم الكبير الوشيك على برلين، قبل ثماني ساعات من وقوعه. يقول التقرير الذي نمتلكه حرفيا[1]: «في نيسان/ أبريل من سنة 1945، تحدث القائد الأعلى لجيش الحرس المدرع الروسي الثاني في منطقة بريزن، إلى الشرق من برلين، بصورة شخصية مع قادة مجموعاته وأفواجه وطلائع مدرعاته عن المهام الدقيقة، وطرق التقدم، وأزمنته، وتأمين مجنباته، وحمايته الجوية، وعن هدف هجوم الجيش، الذي يكمن في التقدم من شمال برلين إلى شمال بوتسدام، حيث سيتحد مع القوى التي تتقدم جنوب برلين». وقد وصل نبأ هذه المحادثة إلى ملجأ الفوهرر.

ماذا فعلت قيادة الرايش في هذا الوضع؟. لا شيء من الناحية العملية. لقد تركت الأحداث تجرفها، أو أعطت أوامر عبثية إلى جيوش ومجموعات جيوش لا وجود لها إلا على خريطة الفوهرر القتالية، أو قرأ كوبلز وبلز لفوهرره، «كي يواسيه وينعشه»، نصوصا من كتابه المحبب «تاريخ فريدريك الكبير» لكارلايل، أو فرت إلى التنجيم وأشارت إلى برجين تنبآ «بسلسلة من الهجمات المعاكسة تضمران أكثر الضربات شدة، ستحدث في الأشهر الاولى من 1945، وخاصة في النصف الثاني من نيسان/ أبريل، يليها ركود يستمر حتى آب/ أغسطس، شهر السلام، ثم تأتي ثلاث سنوات عجاف بالنسبة لألمانيا، قبل أن تبدأ نهوضا جديدا سنة 1948»[2].

صدقت القيادة هذين البرجين، بينما كانت ترفض خلال أعوام كثيرة

(1) في المجموعة، التي ضمت الإسهامات المكتوبة آنذاك لشعبة التاريخ في كارلسروه (قيادة اللواء هالدر)، لم تذكر أسماء الكتاب ـ باستثناء إسم العقيد خارج الخدمة راندیفیج.

(2) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا. بالألمانية، فرانكفورت على الماين 1954، ص 755 وما يليها.

أخبار ومعلومات أوثق المصادر، التي حصل عليها خيرة المتخصصين من الأثير. صحيح أن القيادة ما كانت لتحرز الانتصار بهذه المعلومات، إلا أنه كان يمكن شق طريق العقل السياسي بمعونتها، وهو ما حاولته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» سنة 1942، عندما ألح قادتها على سلام توافقي مع روسيا. لكن سنة 1944 كانت متأخرة جداً لبلوغه.

obeikandl.com